تجليات الرمز في الشعر المعاصر، (قصيدة في القدس أنموذجا)

Manifestations of the Symbol in Contemporary Poetry (Poem in Quds as a Model

د. بلقاسم طاهري1.* ، د. مخلوف عبد القادر2

[1]المركز الجامعي (البيض)، tahribel@gmail.com

[2]المركز الجامعي (البيض)، Abdelkadermakhlouf1976@hotmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/09/01 **تاريخ المراجعة**: 16/ 12/ 2022 **تاريخ النشر**: 31/12/ 2022

ملخص:

لقد بات الرمز أداة فاعلة في مجال الكتابة الشعرية بسبب الطاقة التعبيرية والهالة الجمالية الناجمة عنه، حيث يتيح للشاعر القدرة على التعبير عن المعاني العميقة التي تعجز اللغة في شكلها المباشر بلوغها، لذا فلا عجب أن نرى تهافت الشعراء على تضمينه نصوصهم حتى بات سمة مشتركة تسهم في الارتقاء بشعرية النصوص، وعمق دلالاتها، وشدة تأثيرها في المتلقي، وذلك إذا وظف توظيفا يضمن له الشكل الجمالي المنسجم والاتساق الفكري الدقيق المقنع، الذي من شأنه خلخلة توازن القارئ وإقناعه، خصوصا إذا تعلق الأمر بقضية جوهرية كقضية القدس التي سيحاول البحث مقاربة أحد أبرز النصوص السابحة في فلكها بنظرة وصفية تحليلية، تستند على تكثيف النظر إلى الدلالات اللغوية المنبجسة عن توظيف الرمز اللغوي ضمن اللعبة التواصلية، بإبراز مدى تأثيره دلاليا وجماليا على المتلقي، خصوصا إذا علمنا أنّ القصيدة عبارة عن صيحة عربي أبيٍّ، تحاول إثبات عروبة القدس وإسلاميتها.

الكلمات المفتاحية: (الرمز، الرمزية، القصيدة، الدلالة، المعنى، الشعر)

Abstract

Symbol has become an effective tool in the field of poetic writing because of the expressive energy and aesthetic aura resulting from it. It allows the poet to express deep meanings that language cannot convey in its direct form. Therefore, it is not surprising to see poets rush to include it in their texts, until it has become a common feature that contributes to

improving the poeticity of texts, the depth of their connotations, and the intensity of their impact on the recipient. Such effect is possible when the employed symbols guarantee the harmonious aesthetic form and accurate convincing of intellectual consistency, which would shake the reader's balance and convince him, especially if it comes to Jerusalem "Al-Quds" as a fundamental issue. The present research attempts to approach the issue of Jerusalem by intensifying the use of the symbol and the extent of its semantic and aesthetic impact on the recipient, especially if we know that the poem is a cry of an Arab pride, trying to prove the Islamic and Arab identity of Jerusalem.

Keywords: *symbol, poem, significance, meaning, poetry*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

لطالما كان الشعر مولعا بالمواراة والتمنع، إذ يترفّع عن إبداء حسنه إلا من وراء حجب، كما يرفض كشف أسراره إلا تلميحا، لذا نراه يعكف على الاستنجاد بما أمكن من وسائل التخفي والمراوغة الفنية، رافضا بذلك أي شكل من أشكال السطحية والمباشرة التي تنزل بمعانيه إلى حضيض اللغة النثرية المباشرة التي لا يرتجى منها غير التواصل بعيدا عن أي وجه من أوجه الجمال الفني، كون معانيها تسلم نفسها للقارئ دون أدنى جهد منه، فالقصيدة العظيمة على حد وصف **أدونيس** هي تلك التي "لا تكون حاضرة أمامك كالرغيف، أو كأس الماء، فهي ليست شيئا سطحيا تراه وتلمسه، وتحيط به دفعة واحدة، إنّها عالم ذو أبعاد ... عالم متموج ومتداخل، كثيف بشفافية تعيش فيها وتعجز عن القبض عليها،"[1] إلاّ بعد صراع طويل، وكرٍّ وفرّ، تستحضر فيه كقارئ جميع ما تقع عليه يداك من وسائل الكشف عن المعنى التي من شأنها منحك قراءة خالية من أي عورٍ قد يحرف الدّلالة عن مقصديتها التي وضعت لأجلها، كما تتطلب منك معرفة حقيقية بدهاليز المعنى وأنفاقه التي ألف فرسان الشعر التسلّل عبرها كالكناية والاستعارة والمجاز المرسل وغيرها من الصّور البيانية، ينضاف إليها ما أفرزه الاحتكاك بالشعر الغربي من أشكال تعبيرية كالرمز والأسطورة الذين باتا ملمحين بارزين في الشعر الحديث يسهمان في جعل لعبة التخفي أكثر إمتاعا وجمالا، كونها زادت في تحريض شعراء العصر الحديث على إرسال معانيهم ملثمة لا يتكشف وجهها إلا بعد إمعان وتركيز كبيرين من القارئ.

ولأن علم البيان قد حظي بقسط وافر من الدراسات في مجال البلاغة، حيث لم يدخر القدماء والمحدثون على حد سواء الجهد في تناول قضاياه وجزئياته لدرجة يعجز فيها الباحث عن حصر عناوين الكتب والبحوث التي خاضت في هذا المجال، ناهيك عن الاطلاع عن مضامينها وفحوى تفريعاتها التي لا تكاد تعد ولا تحصى، فقد آثر البحث الخوض في مسألة الرمز اللغوي وأثره الدلالي والجمالي في الشعر المعاصر، باعتباره أحد أهم آليات المراوغة اللغوية والتخفي التي استنجد بها الشعر المعاصر، هربا من الوقوع في فخ الوضوح والبساطة التي قد تزيل عنه بريقه وبهرجه، "فالحكم على أي شعر بالوضوح يعني أنّه كالأرض الموات التي لا تغل، ولا تُنبت، فالوضوح في الشعر سذاجة غير محببة،"[2] لطالما تحاشاها الشعراء خصوصا في العصر الحديث، فنأوا بمعانيهم بعيدا، حتى لا تكون قطوفا دانية سرعان ما تزهد في بلوغها العقول.

من هنا بات السؤال عن ماهية الرمز وأثره الدلالي والجمالي في الشعر المعاصر مطلبا ملحاً، سنحاول الإجابة عنه من خلال تكثيف النظر إلى أحد النصوص الشعرية المعاصرة لكونه استطاع أن يلفت إليه الانتباه بسبب طبيعته اللغوية القائمة على التمنع والمواراة، ممثلا في قصيدة **في القدس**، للشاعر تميم البرغوثي، حيث سنحاول رصد ما أمكن من التلميحات اللغوية ضمن إيهابها الرمزي، ثم السعي للكشف عمّا أمكن من أوجه الدّلالة الكامنة خلف حجب اللعبة الرمزية التي يبدو فيها الشاعر عارفا بأسرارها وملما بخفاياها.

لعلّ من نافلة القول إن لم يكن من واجبه أن يستفتح البحث حديثه عن ماهية الرمز قبل البحث في ثنايا القصيدة عن استخداماته، فما مفهوم الرمز؟

الرمز لغة:

جاء في لسان العرب: "الرَّمْزُ: تَصْوِيتٌ خَفِيٌّ بِاللِّسَانِ كالهمس، وَيَكُونُ تَحْرِيكَ الشَّفَتَيْنِ بِكَلَامٍ غَيْرِ مَفْهُومٍ بِاللَّفْظِ مِنْ غَيْرِ إِبَانَةٍ بِصَوْتٍ إِنَّمَا هُوَ إِشَارَةٌ بِالشَّفَتَيْنِ، وَقِيلَ: الرَّمْزُ إِشَارَةٌ وَإِيمَاءٌ بِالْعَيْنَيْنِ وَالْحَاجِبَيْنِ وَالشَّفَتَيْنِ وَالْفَمِ، وَالرَّمْزُ فِي اللُّغَةِ كل مَا أَشَرْتَ إِلَيْهِ مِمَّا يُبَانُ بِلَفْظٍ بِأَيِّ شَيْءٍ أَشَرْتَ إِلَيْهِ بِيَدٍ أَوْ بِعَيْنٍ"[3]

أمّا دلالته في القرآن الكريم فلم تخرج في الغالب عن معنى الإشارة والتلميح، قال تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ**﴾[4] أي ألاّ تكلم النّاس إلاّ تلميحا وإشارة دون كلام.

الرمز اصطلاحا:

أ- عند القدامى:

مما لاشك فيه أنّ الرّمز بوصفه مصطلحا فنيا لم يظهر إلاّ حديثا، بفعل الاحتكاك بالنقد الغربي في مجال الأدب، حيث لا نكاد نعثر في تاريخنا العربي عن استعمال صريح لمصطلح الرمز بمفهومه الحالي، إذ اقتصرت استعمالاته في الغالب على معنى الإيماء والتلميح والإشارة، أي التعبير غير المباشر الذي يتضمن الإشارة للشيء عوض التصريح العلني عنه، ويدخل في ذلك المجاز بألوانه البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها، على اعتبار أن المتكلم لا يصرح بمراده إلا تلميحا ورمزا، غير أن بعض الدراسات الحديثة تعزو ظهور أول استعمال لمصطلح الرمز بمعناه الاصطلاحي إلى العصر العباسي وتحديدا في كتاب « **نقد النثر**» لقدامة بن جعفر، حيث يقول درويش الجندي: "أوّل من تكلّم عن الرّمز بالمعنى الاصطلاحي هو قدامة بن جعفر، حيث عقد في كتابه: « **نقد النثر**» بابا للرمز ففسّره أوّلا تفسيرا لغويا فقال: هو ما أخفى من الكلام، وأصله الصّوت الخفيّ الّذي لا يكاد يفهم،"[5] ويعرفه في موضع آخر من الكتاب فيقول: "هو ما أخفي من الكلام، و أصله الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم، و إنما يستعمل المتكلم الرمز في كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم،"[6] أي يجعل المعنى متواريا لا يتكشف إلا لمن يمتلك القدرة على إزالة إبهامه من خلال فك رموزه.

ب- عند المحدثين:

لا يختلف الرمز عن كثير من المصطلحات النقدية الحديثة في عدم استقرارها على مفهوم ثابت ومحدد، كونها نخضع لوجهات نظر المختصين القائمة على الاختلاف والتنوع تبعا لاختلاف وجهات نظرهم بحسب مجال اختصاصهم، لذا حاول البحث تحسس المفاهيم الأكثر تعبيرا عن مدلول الرمز ووظيفته القائمة على الإيحاء، أي التعبير غير المباشر، عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى اللغة على أدائها أو لا يراد التعبير عنها مباشرة، ولعل أكثر هذه التعريفات تعبيرا عن مدلول الرمز ما جاء في قاموس ويبستر **(webster)** حيث يعرفه على أنه: "ما يعني أو يومئ إلى شيء عن طريق علاقة بينهما، كمجرد الاقتران، أو الاصطلاح، أو التشابه العارض غير المقصود،"[7] ولابد لهذه العلاقة أن تكون قوية لدرجة إذا ذكر الرمز باعتباره أحد طرفيها فهم منه الطرف الثاني وهو ما يدل عليه.

أمّا المعجم الأدبي فيعرف الرمز على أنّه: " كل إشارة، أو علامة محسوسة تذكر بشيء حاضر، من ذلك العلم رمز الوطن، والكلب رمز الوفاء...، وقد اعتبر المحللون النفسانيون أن وظيفة الرمز هي إيصال بعض المفاهيم إلى الوجدان بأسلوب خاص، لاستحالة إيصالها بأسلوب مباشر مألوف "[8]

تجليات الرمز في قصيدة « في القدس »

القصيدة رحلة وصفية عبر مخيال الشاعر الخصب الذي يبدو انّه لجأ إليه بسبب الكبت الذي استبدّ به نتيجة المنع من دخول القدس باعتبارها حضناً وموطنامن جهة، ومن جهة أخرى صرحا تاريخيا له قداسته، حيث ستعود سيارة الأجرة أدراجها بسبب الحاجز الأمني للمحتل الغاصب على أعتاب المدينة، فيعود الشاعر دون بلوغها جسدا، ولكنه يتسلل إليها روحا وعقلا، ليتجول في أزقتها، ويتأمل معالمها، ويتفرس في وجوه ساكنتها، ثم ينبري في وصفها من خلال أداة اللغة التي يبدو عارفا بطبيعة أسوارها وطرق القفز فوقها وتجاوزها بحثا عن أكثر المعاني تعقيدا وتشعبا خصوصا تلك المتعلقة بالنوازع النفسية التي تفرضها حميمية العلاقة بين الشاعر والمكان، فالشاعر باعتباره مسلما أولا، ثم فلسطينيا عربيا ثانيا، والقدس باعتبارها القدس بكل ما تحمله دلالة الكلمة من قداسة وعراقة وتاريخ تليد يستبد بكيان كل مسلم عربي يمتلك أدنى مقومات الغيرة على حمى وحرمات هذه الأمة، إنّها علاقة من نوع خاص تجلّلها عواطف ومشاعر من نوع خاص، تتشارك في نحت ملامحها أبعاد مختلفة كالدين والتاريخ والأصل والعادات وغيرها، لذا من الطبيعي أن تقف اللغة بشكلها المباشر مشدوهة عاجزة عن نقل هذا النمط المعقد من المشاعر، فتستنجد بأكثر تقنياتها مراوغة وانزياحا، ممثلة في الرّمز الذي بات ملمحا لغويا بارزا في القصيدة المعاصرة بسبب طاقته التعبيرية الهائلة التي من شأنها نقل المعنى مرفقا بالإحساس في كثير من المواقف التي تعجز فيها ريشة اللغة عن رسم أكثر الصور تعقيدا وتداخلا، "فالرمز وسيلة إيحائية من ابرز وسائل التصوير الشعرية التي ابتدعها الشاعر المعاصر عبر سعيه الدائب وراء اكتشاف وسائل تعبير لغوية، يثري بها لغته الشعرية ويجعلها قادرة على الإيحاء بما يستعصي على التحديد والوصف من مشاعره وأحاسيسه وأبعاد رؤيته الشعرية المختلفة"9 في ظل الشعور بعجز اللغة المباشرة عن ذلك، خصوصا إذا ما تعلق الأمر بالتعبير عن أمر جلل يستبد بكيان الشاعر كموضوع القدس باعتبارها القضية الأم التي شغلت ولا زالت تشغل فكر وبال الأدباء والشعراء العرب مذ اغتصابها إلى يومنا هذا.

- **رمز القدس:**

لا عجب أن تتوسل قصيدة مضمونها القدس إيصال ملفوظها إلى الرمز مع أولى عتباتها ممثلة في العنوان، فالقدس في حد ذاتها أكثر الرموز الدينية حضورا في الأدب العربي، باعتبارها محور قضايا الأمة، كيف لا وهي ثالث أقدس الأماكن عند المسلمين بعد مكة والمدينة المنورة، فقد كانت قبلة المسلمين أول الأمر، قبل أن تتحول إلى البيت الحرام بمكة، ثم هي مسرى رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ **سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾[10]، ثم إنّ عددًا كبيرًا من الأنبياء والصالحين ، قطنوا المدينة عبر التاريخ أو عبروها، ومنهم داود وسليمان وزكرياء ويحيى والمسيح عيسى بن مريم، وكذلك لذكر المدينة في القرآن بأنها وما حولها أراض مباركة شكّلت قبلة للأنبياء ومهبطًا للملائكـــــة والوحي وأن الناس يُحشرون فيها يوم القيامة، فكل هذا الزخم التاريخي المقدس جعل من القدس أيقونة، وفصّ ماس دفين في صدر كل مسلم وعربي يفاخر بها الشعوب الأخرى، غير أنّ اغتصابها وعجز العرب والمسلمين على استرجاعها جعل منها رمزا للانكسار والتخاذل العربي، حتى بات ذكرها يوحي بالاستكانة العربية والخضوع في جانب من الجوانب، غير أنّها كانت ولازالت رمزا لالتقاء الملل، ودليلا على صدورها من مشكاة واحدة، إنهاّ

باختصار رمز للمشاعر المتناقضة بين الفخر والعجز، كيف لا و"**في القدس يرتاحُ التناقضُ، والعجائبُ ليس ينكرُها العبادُ**"[11] على حد قول الشاعر، فهي أكثر الرموز إثارة للجدل بسبب حمولتها الدلالية المتنوعة التي تتيح لها التعبير عن كثير من الأمور، لذلك تكرر ذكرها عبر أغلب الأسطر الشعرية للقصيدة، فهي رمز القداسة الدينية، ورمز التعايش الإنساني كونها تضم فوق أرضها وتحتها مختلف الجنسيات، كما تعتبر رمز العراقة والقدم الإنساني، ينضاف إلى ذلك رمزيتها للتخاذل العربي الإسلامي، إنّها باختصار شحنة دلالية تنوعت أشكالها وألوانها بتنوع ما اختبرته من أحداث جليلة على مر العصور.

- **رمز الكتب السماوية:**

تواصل القصيدة شق طريقها عبر أكثر المسالك اللغوية ثراءً ممثلة في الرمز الديني الذي ينتصب شامخا من خلال التصريح بالكتب السماوية باعتبارها رموزا واضحة للملل التي تمثلها، كما أنها أكثر الرموز الدينية حضورا في مختلف النصوص الفنية لما تحمله من شحنة دلالية حيث أنها تشير إلى الملة مشفّعة بتعاليمها، ومن جملة ما ورد في هذه القصيدة:

"في القدس، توراةٌ وكهلٌ جاءَ من مَنْهاتِنَ العُليا يُفَقَّهُ فتيةَ البُولُونِ في أحكامها."[12]

"في القدس أبنيةٌ حجارتُها اقتباساتٌ من الإنجيلِ والقرآنْ."[13]

لاشك أنّ هذه المراوغة اللغوية القائمة على تحاشي التصريح بالملل مباشرة (الإسلام، المسيحية، اليهودية) والاكتفاء بالتلميح لها من خلال الرمز ممثلا في الكتب السماوية التي تتضمن تعاليمها، يجر خلفه مقصدية دلالية حاول الشاعر لفت الانتباه إليها، فحين عمد إلى ذكر الكتب السماوية دون تسمية الملل التي تمثلها، إنّما أراد بذلك الإشارة إلى هذه الملل بوجهها الحقيقي الممثل في تعاليمها الحقّة، بعيدا عن أي تحريف أو ممارسة مسيئة لهذه التعاليم، معليا بذلك من شأن القدس باعتبارها مهبطا لبعض هذه الكتب السماوية، وحاضنة للملل التي تمثلها على الوجه الذي ارتضاه رب العباد قبل أن يحرف بعضها العباد.

ثم تواصل القصيدة استنجادها بالرمز الديني الذي يبدو مستحوذا على المشهد الشعري، حيث نستشعر تركيز الشاعر في رسمه للقدس على الهالة القدسية التي تحيط بها باعتبارها حاضنة الأديان على مر التاريخ، فقد اجتمعت فيها دور العبادة على اختلافها من مساجد وكنائس – باعتبارها رموزا لمللها على مر التاريخ بمعمارها العتيق المرتكز على أعمدة الرخام الدّاكنة المتعرّقة لفرط ما تعاقب عليها من زمن، وكأنها تعمدت الصمود لتبقى شواهد على قداسة هذه الأرض من خلال علاقتها الموغلة في الزمن بجميع الأديان إمّا مهبطا، وإما قبلة، حيث يقول الشاعر:

"في القدس أعمدةُ الرُّخامِ الداكناتُ
كأنَّ تعريقَ الرُّخامِ دخانْ
ونو افذٌ تعلو المساجدَ والكنائس،
أَمْسَكَتْ بيدِ الصُّباحِ تُرِيهِ كيفَ النقشُ بالألوانِ،

وَهْوَ يقول: ؟لا بل هكذا؟،
فَتَقُولُ: ؟لا بل هكذا؟،"[14]

من الواضح جدا أنّ الشاعر لم يكتف في تلميحه للأديان باستحضار دور عبادتها، بل راح يرسمها بشكل فني باعثا فيها الحياة للتعبير عن مدى قداسة هذه الأماكن، لدرجة تتحاور فيها نوافذها مع الصباح باعتباره رمزا للتغيير والتجدد، وكأنّ الدّين في هذه الأرض هو من يرسم طريقها ويحدد وجهتها، فالتغيير في هذه البلاد رهن بالجانب الدّيني، فقداسة القدس مصدرها الدين، وتوالي النكبات عليها مرده الدين، الذي منحها هذه القدسية التي جعلت منها محط أطماع مختلف الأجناس تبعا لمعتقداتهم، وجميع ما تختبره القدس مرده إلى الدين، فهو ديدنها وذروة سنامها الذي تستمد آمالها وألامها منه.

ثم يواصل الشاعر مرافعته سعيا لتحقيق انتصار للعرب خصوصا وللمسلمين عموما في أحقيتهم للقدس، مستنجدا في ذلك بجميع الأساليب الممكنة وعلى رأسها تقنية الرمز الديني فيقول:

"في القدس يزدادُ الهلالُ تقوساً مثلَ الجنينْ
حَدْباً على أشباهه فوقَ القبابِ
تَطَوَّرَتْ ما بَيْنَهم عَبْرَ السنينَ عِلاقةُ الأَبِ بالبَنينْ"[15]

من الواضح أنّ استحضار الشاعر لرمز الهلال لم يكن اعتباطا، وإنّما سعى من خلاله إلى الانتصار لعروبة القدس وبتالي أسلمتها، حيث استقر في الأذهان ارتباط الهلال كرمز واضح للإسلام، كما ارتبطت المسيحية بالصليب وارتبطت اليهودية بنجمة داوود، يقول إدغار وليامز: "يرتبط القمر، وخصوصا في شكله الهلالي بصورة وثيقة بالإسلام، فقد حظي القمر بأهمية دينية منذ الأزمنة الغابرة ليس بصفته جرما معبودا فحسب، بل كأداة مهمة لاحتساب مواعيد المواسم والمناسبات الدينية المهمة مثل شهر رمضان، ويعتقد أنّ أوّل استخدام للهلال كرمز ديني يعود إلى فتح الأتراك للقسطنطينية في سنة 1453م، ... حيث استخدم العثمانيون الهلال رمزا لانتصارهم العظيم، ثم بات في نهاية الأمر رمزا للإمبراطورية العثمانية وللإسلام،"[16] لذا فلا عجب أن نرى الشاعر في تأثيثه للمشهد القدسي يستثمر ما أمكن من الرموز العربية والإسلامية إثباتا لأحقية العرب والمسلمين فيها، ففي القدس لا يكتفي الهلال بالحضور في سمائها بشكله المعتاد بل يزداد تقوسا وكأنه يضخم من شكله حتى يتراءى صادحا وصارخا بعروبة الأرض تحته، ثم لا يقف الشاعر عند هذا الحد بل يشد عضد الهلال بالقباب تحته، والمعروف أن القباب هندسة معمارية إسلامية عربية، راسما بذلك صورة تنضح بالعروبة والإسلام في جميع جزئياتها، يتمطط فيها الهلال تقوسا فوق القباب في علاقة متناسقة تطورت عبر السنين حتى باتت كعلاقة الأب بالبنين، وهنا إشارة دلالية أخرى توضح طول عهد القدس بالدين الإسلامي والتي قوامها سنوات لا تحصى امتدت لدرجة تآلف فيها الهلال بالقباب.

لقد استطاع البرغوثي من خلال لعبة التخفي التي مارسها عن طريق اختياراته اللغوية، أن ينتصر لرأيه قاطعا بذلك شوطا كبيرا من مسيرة الإقناع بفضل توشح هذه الاختيارات بالرمز بعيدا عن اللغة المباشرة،

فاللغة الرمزية المعتمدة على الكناية دون التصريح المباشر على الرغم من كونها تتسم بالمبالغة "إلا أنّها تضفي على المعنى حسنا وبهاء من خلال الإثبات دون المثبت، أو في إعطاء الحقيقة مصحوبة بدليلها، وعرض القضية وفي طيها برهانها،"[17] وكأنه يقول القدس عربية إسلامية والدليل على ذلك انتصاب الهلال في سمائها وتمططه فوق قباب مساجدها ودور عبادتها.

ثم يواصل الشاعر مرافعته الشعرية منتصرا لعروبة القدس باستخدام الرمز مستصغرا شأن النماذج البشرية التي باتت تستحوذ على المشهد القدسي بعد أن أزاحت منه - بفعل القوة - أصحاب الأرض الحقيقيين من العرب تهجيرا ونفيا وسجنا وقتلا فيقول:

"في القدسِ شرطيٌ من الأحباشِ يُغْلِقُ شَارِعاً في السوقِ..
رشَّاشٌ على مستوطنٍ لم يبلغِ العشرينَ،
قُبَّعة تُحَيِّي حائطَ المبكَى"[18]

يعكس هذا المشهد مدى الحنق العربي من الوضع الذي باتت تعيشه القدس، فبعد أن كانت تضم بين أسوارها خيار البشر من الأنبياء والصالحين وذرّياتهم من مختلف الملل، باتت مرتعا للأراذل من البشر، حتى صار مجرد شرطي فتيٍّ من الحبشة لا شرف له يغلق شارعا كاملا من شوارع القدس العتيقة، مانعا بذلك أشراف أهلها المرور أو ربما حتى الصلاة في المسجد الأقصى.

ثم يستمر الشاعر في استعراض مشاهد الهوان العربي باستعمال تقنية الرمز، مستعملا كلمتي: الرشاش والقبعة، فالرشاش رمز القتل، والقبعة رمز اليهودي المتطرف دينيا، وقد استعان بهما الشاعر تحقيرا وتصغيرا لشخص المحتل الغاشم، فأيّ شأنٍ كان سيكون لهذا المستوطن الغِرّ لولا ذلك الرّشاش الذي يجثم على صدره والذي يبدو أكبر منه، وأيّ حقٍ لذلك المتطرف – الذي لا تعدو قيمته قيمة قبعته - يتيح له الوقوف على حائط المبكى موهما بأنها شعيرة دينية تخوّل له التّواجد هاهنا.

إنّ تصغير الشاعر لشأن العدو واحتقاره له، على الرغم من كونه جاء تنفيسا عن الغضب وتعبيرا عن مدى الحنق اتجاه هذا الغاشم المغتصب، إلاّ أنه يحمل معه رثاءً لحال القدس ومن ورائها فلسطين، فهو يستنكر كيف يكون هذا الوضيع ندًا وعدوا له، إذْ أنّ قيمة المرء من قيمة عدوه، فالاستعمار مأساة، وما يزيد هذه المأساة سوءًا وإذلالاً أن يكون المستعمِر وضيعا لا يرقى إلى شسع نعل المستعمَرْ، لذلك نرى الشاعر في قصيدة أخرى يصرح بذلك علنا حيث يقول:

"لقد عرفنـــا الغزاة قبلكـــمُ ونشهد الله فيكم البـــــدع.
ستون عاما وما بكم خجـــل الموت فينا وفيكم الفـــــزع.
أخزاكـــم الله في الغزاة فمـــا رأى الورى مثلكم ولا سمعـوا.
حين الشعوب انتقت أعاديها لم نشهد القرعة التي اقترعوا.
لستم بأكفائنا لنكرهكـــــم وفي عداء الوضيع ما يضـــع.
لم نلق من قبلكم وإن كثـروا قوما غزاة إذا غزوا هلعـــوا."[19]

من الواضح جدا أن الشاعر زاوج في حديثه عن القدس بين أمرين، رثاء حال القدس وما آلت إليه، وذم المستعمر الغاصب الذي لا يرى فيه ندا كفئا له كما لا يبدو أهلا لاستيطان هذه الأرض التي لا يدرك قيمتها وشرفها، حيث يعبر عن ذلك في مقطع آخر مستعينا بالرمز فيقول:

في القدسِ دَبَّ الجندُ مُنْتَعِلِينَ فوقَ الغَيمْ.
في القدسِ صَلَّينا على الأَسْفَلْتْ.

إنّ المتأمّل لكلمتي (الغيم والإسفلت) سرعان ما يدرك تعارضهما دلاليا، حيث يرمز الغيم للرفعة، في حين يرمز الأسفلت للوضاعة، وقد استحضرهما الشاعر لتوضيح صورة القدس في عيون كل من المستعمِر والمستعمَر، راسما بذلك صورتين فنيتين غاية في الجمال، تنمان عن قدرة فائقة في استعمال اللغة، حيث جسّد في المشهد الأول صورة الجنود الغاصبين تدوس أرض القدس الطاهرة بأحذيتهم الخشنة، غير آبهين بقداستها التي يراها هو غَيْمًا لفرط رفعتها وسموها، في حين جسد في المشهد الثاني صورة الفلسطيني يضع جبهته في الصلاة على أسفلت المدينة إكراما وإجلالا لهذه الأرض المقدسة، فشتان بين مستعمِرٍ وضيع غاشم لا يراعي قداسة الأرض وحرمتها، وبين مستعمَر أبيٍّ أصيل يُقبّل الأرض استشعارا منه لجلال قدرها وعلوّ شأنها.

ومواصلة منه في استجلاء مظاهر الرفعة والعظمة لهذه البقعة المباركة نراه يستعين بنوع آخر من الرموز ممثلا في شخصية تاريخية حاول من خلالها إثبات معدن هذه الأرض الطيب الذي يصنع الرجال، على غرار الظاهر بيبرس حيث يقول:

"في القدس مدرسةٌ لمملوكٍ أتى مما وراءَ النهرِ
باعوهُ بسوقِ نِخَاسَةٍ في أصفهانَ لتاجرٍ من أهلِ بغدادٍ
أتى حلباً فخافَ أميرُها من زُرْقَةٍ في عَيْنِهِ اليُسْرَى
فأعطاهُ لقافلةٍ أتت مصراً
فأصبحَ بعدَ بضعِ سنينَ غَلاَّبَ المغولِ وصاحبَ السلطانْ."[20]

يتحدث المقطع عن شخصية تاريخية هي الظاهر بيبرس، "وهو ركن الدين بيبرس البندقداري، ولي عام658 هـ، وهو أهم ملوك الدولة البحرية المملوكية، وأصله من أرض القبجاق، أسر وبيع، للأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، فتسب لذلك إليهما وقد اعتقه الصالح وضمه إلى مماليكه البحرية ورباه معهم، فشبّ شجاعا باسلا لا يهاب الموت. وقد عرفته الحروب – وهو أمير – مقداما صنديدا. عرفته في موقعة المنصورة التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه، وموقعة عين جالوت وبيسان اللتين هزما فيهما التاتار في عهد قطز،"[21] ثمّ صار بعد ذلك رمزا تاريخيا للشجاعة والإقدام، وقد استحضره الشاعر هاهنا للدلالة على تاريخ هذه الأرض التليد، الزاخر بالشخصيات الفذة التي مرت عليه، موجها رسالة إلى المستعمر مضمونها أنّ هذه الأرض كانت ولازالت موردا لصناعة الرجال الذين يرفضون الاستكانة والرضوخ.

خاتمة:

ختاما يخلص البحث إلى النتائج الآتية:

- ✓ إنّما يتراءى من خلال ما تأتى بيانه أن الشاعر قد أجاد استعمال الرمز عبر تقنية التخفي اللغوي الأمر الذي أضفى على القصيدة بعدا جماليا وحجاجيا متفردا.
- ✓ ساهم الرمز في خلق اتساق وانسجام بين الممثل والتمثيل،
- ✓ إنّ التنويع والتلوين في استعمال الرموز بحسب - ما ذكرناه سابقا – يستدعي قارئا نموذجيا وتعاضديا يجيد فك شفرات مختلف اسطر القصيدة وتأويلها
- ✓ فتح الرّمز على القارئ عوالم دلالية جديدة تقتضي منه إجادة ربط التاريخي بالحاضر ضمن إنتاج نصّي مغاير يتساوق ومعطيات القضية الفلسطينية بوصفها قضية عادلة لا يتسلل إليها الشك، لذا كان من الطّبيعي أن يستنجد الشاعر بهذه التقنية كونها تقوم على استحضار المعنى مرفقا بدليله في مراوغة لغوية استطاع من خلالها تحويل القصيدة إلى مرافعة شعرية أتقن نسج خيوطها لدرجة ترك فيها القارئ مستسلما بلسان حالٍ يردد:

"لا تبكِ عينُكَ أيها العَرَبِيُّ
واعلمْ أنَّهُ في القدسِ من في القدسِ
لكنْ لا أَرَى في القدسِ إلا أَنْت."[22]

وهو آخر مقطع من هذه القصيدة حاول الشاعر تضمينه حكما قاضيا بملكيته للأرض وحيازتها، مسقطا بذلك القناع عن الآخر باعتباره مجرد غاصب مدعٍ.

هوامش وإحالات المقال

[1] - أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط: 03، 1983م، ص:159/158.

[2] - نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ط: 02، 1982، ص: 109

[3] - ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مادة (ر.م.ز) ج: 06، ص: 223/222.

[4] - القرآن الكريم، الآية: 41 من سورة آل عمران.

[5] - درويش الجندي، الرمزية في الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1958، ص: 58.

[6] - قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979، ص: 62/61.

[7] - W.Y. Tindall , the Literary Symbol , New York , 1955 , p: 5

[8] عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط: 02، 1984، مادة (ر.م.ز)، ص: 123.

[9] - علي عشرى زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة، مصر، ط: 04، ص: 104.

[10] - القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية: 01.

[11] - تميم البرغوثي. ديوان في القدس، مكتبة الرمحي أحمد، دار الشروق، (د/ط)، ص: 11

[12] - م،ن، ص: 07.

[13] - م،ن، ص: 09.

[14] - م،ن، ص: 10

[15] - م،ن، ص: 09

[16] - إدغار وليامز، القمر طبيعة وثقافة، تر: صفاء كنج، دائرة الثقافة والسياحة، أبو ظبي، 2019، ص: 26

[17] - ينظر عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985م، (د/ط)، ص: 223.

[18] - تميم البرغوثي. ديوان في القدس، ص: 07 و08

[19] - م،ن، ص: 46 و47.

[20] - م،ن، ص: 10

[21] - محمود شلبي، حياة الملك الظاهر بيبرس، دار الجيل بيروت، ط: 01، 1992، ص: 32.

[22] - تميم البرغوثي. ديوان في القدس، ص: 12

قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم، الآية: 41 من سورة آل عمران.
2. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.
3. أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، ط: 03، 1983م.
4. إدغار وليامز، القمر طبيعة وثقافة، تر: صفاء كنج، دائرة الثقافة والسياحة، أبو ظبي، 2019م.
5. تميم البرغوثي. ديوان في القدس.
6. درويش الجندي، الرمزية في الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1958م.
7. عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط: 02، 1984م.
8. عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985م.
9. علي عشرى زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة، مصر.
10. قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979.
11. محمود شلبي، حياة الملك الظاهر بيبرس، دار الجيل بيروت، ط: 01، 1992.
12. نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ط: 02، 1982.